(١)

العفة والمروءة والترفع عن الدنايا

الحمد لله ، القائل في كتابه الكريم : {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، وصفيه من خلقه وحبيبه ، القائل في حديثه الشريف : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مكارم الأَخْلاقِ) ، اللهم صل وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه وسلك طريقه إلى يوم الدين.

أما بعد : فإن للأخلاق في الإسلام منزلة عالية ومكانة خاصة ، فهي لبُّ الدين وجوهره ، وقد سئل نبينا (صلى الله عليه وسلم) ما الدين ؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) : (حسن الخلق) ، وأعلن (صلى الله عليه وسلم) أنها الغاية الأسمى من بعثته ورسالته ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مكارم الأَخْلاقِ).

إن الأخلاق الفاضلة هي التي تعصم الإنسان من الزلل والانحراف ، وتصون المجتمعات من الفوضى والضياع ، فسلامة المجتمع وقوة بنيانه، وسمو مكانته وعزة أبنائه ، ترقى بتمسكه بالأخلاق الفاضلة ، فبالأخلاق تحيا الأمم وتبقى آثارها خالدة ، وبزوالها وانهيارها تنهار الأمم ، فالأمم والحضارات التي لا تقوم على الأخلاق تحمل عوامل انهيارها في ذاتها ومن داخلها ، يقول الشاعر:

إِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ ** فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

ومن القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها ديننا الحنيف ورغَّبَ فيها ، وحثَّ على التخلق بها ، خلق العفة والمروءة، العفة التي تعني ضبط السلوك الإنساني ، والوصول به إلى مجتمع نقي تقي يرتبط بعضه ببعض ، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلاَ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ).

فالعفة تحفظ المسلم من كل خلق سيِّئ، وتدفع به نحو الفضيلة والرقي، بها تتوطد الصلات وتسمو العلاقات ، وبها تحفظ الأموال والأعراض، ولقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في دعائه يسأل الله تعالى العفاف ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود (رضي الله عنه) أن النَّبِي (صلى الله عليه وسلم) كَانَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى) .

وقد ورد لفظ العفة في القرآن الكريم بمعنى التعفف والترفع عما ليس في ملك الإنسان من أموال الغير في آيتين كريمتين: الأولى: قوله تعالى: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النّاسَ إِلْحَافًا}، والثانية : قوله تعالى: {وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ}.

كذلك وردت العفة بمعنى التسامي فوق الغرائز والرغبات ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، ويقول سبحانه: {وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

ومن فضائلها أيضًا : أنها تحفظ صاحبها من الهلاك ، فعندما كان ثلاثة يسيرون في طريقٍ واضطروا إلى الدخول في كهف فوقعت صخرة فسدت بابه، واستنجد كل منهم بما قدم من عمل صالح ، حيث قال أحدهم وكان الثالث منهم : (اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَجِئْتُهَا بِهَا فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَقُمْتُ عَنْهَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً. فَفَرَجَ لَهُمْ) .

ومن صور العفة: عفة الفرج ، وهو مما تزكو به النفوس ، وتسلم به المجتمعات ، ويحفظ به الأمن، وتصان به الأعراض ، وقد أمر الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات بحفظ فروجهم وأبصارهم فقال سبحانه:{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ) .

ومن صور العفة: عفة البطن ، ويقصد بها تحري الحلال في كل ما يدخل البطن من طعام أو شراب أو غير ذلك، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه)

قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ : (اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ) قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، قَالَ: (لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنْ مَنْ اسْتَحَى مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظْ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى وَلْيَحْفَظْ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى وَلْيَذْكُر الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) حَقَّ الْحَيَاءِ). أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الحمد لله وكفى ، وصلاة وسلامًا على عباده الذين اصطفى، وعلى سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اقتفى .

تحدثنا عن عفة الفرج وعفة البطن ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): "اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنُ لَكُمُ الْجَنَّةَ : اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ " .

ومن صور العفة : عفة اللسان .

فاللسان من أجل النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الإنسان ، به المنطق والبيان ، وبه تتضح الحجة والبرهان ، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ}، فاللسان صغير في حجمه عظيم في أثره ، إذ هو ترجمان القلوب والأفكار ، ومن ثم فيجب على الإنسان أن يحفظه وأن يعفه عن كل ما نهى الله تعالى عنه.

ولقد اهتم الصالحون (رضوان الله تعالى عليهم) بصون ألسنتهم وعفتها عن الكلام المحرم ، قَالَ ابْنُ بُرَيْدَةَ: رَأَيْت ابْنَ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) أَخَذَ بِلِسَانِهِ وَهُوَ يَقُولُ: " وَيْحَك قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ أَوْ اُسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمْ ، وَإِلا فَاعْلَمْ أَنَّك سَتَنْدَمُ". ولما سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) : (أيُّ المسلمين خَير ؟ قال : (مَنْ سَلِمَ المسلِمُونَ مِنْ لسانِهِ ويدِه) ، ثم تأتي رواية شاملة للناس جميعًا، فعن عَبْد اللَّهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعاصِ (رضي الله عنه) قال : إِنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ).

وعن مُعَاذٍ بن جبل (رضي الله عنه) قَالَ: قُلْتُ : يَا رسولَ الله وإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فقالَ : (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟) .

فعلى كل عاقل أن يكف لسانه عن الكذب لسوء عاقبته ، فهو جماع كل شر ، وأصل كل ذمٍّ ، كما يكف لسانه عن السخرية والاستهزاء التي نهى الله تعالى عنهما في قوله عز وجل: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

وكذلك عفة القلم ، فالقلم لا يقل في خطورته عن اللسان ، فهو اللسان المكتوب ، كما قال الجاحظ: (القلم أحد اللسانين، والقلم أبقى أثرًا) ، بل هو

أحدّ من السيف في قوته ، ويصل إلى أبعد مما يصل إليه اللسان ، فخطورة الكلمة بالقلم لا تقل عن خطورة الكلمة باللسان ، من هنا وجب على كل صاحب قلم أن يلزم قلمه بالعفة في كل ما يكتب ، ويتحرى الأخبار الصادقة ، ويتعفف عن كتابة سفاسف الأمور ، ونشر الأخبار الكاذبة وتشويه الحقائق أو تدليسها ، فالقلم يعكس خُلق صاحبه، وهو أمانة يجب أن تُصان ، ولله در القائل:

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويبقى الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرك يوم القيامة أن تراه

نسأل الله العلي العظيم أن يرزقنا الهدى والتقى والعفاف والغنى ، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عمن سواه .